

بدا لها الطريق
الى الجامعة طريقاً الى
قمة راتمة ، تتجمع
لديها حياتها لأول
مرة على معنى واضح
كالشمس ، خصب
كالقرب . إنها وهي
تصعد بجوار حديقة
الأثارترو الى الأسد
الأعبر الرابض فيها .
وهكذا تكتشف فيه
هذا الصباح نظرات

قصة الشهر

تحت الحرم

بمقام مطاع صنفري

ترتعد للنسمة ، لعلمها
حملت رائحة حراماً ..
ولذ لم يكن ثمة
أحد يهيم منها غير
ظاهرها ، فقد اعتادت
أن تتحدث الى نفسها ،
أن تكتب مذكرات
دائماً . وقد كتبت
ذات مرة :

«لست أنا إلا ..
جميلة . ولا يعرفني
أحد إلا جميلة . وما

عملي إلا ان اكون جميلة . ان اصون الجمال . ان اتقبل الإطراء .. ان
اكون حراماً .

أجل من امها في صباها ، وربما اجل من اختها الكبرى ، التي دفع لها
«فيها» مهر يبلغ ثلاثين الفاً ، مع شرر غسل في ايطاليا .

عروس .. عروس . تلك خلاصة وافية عني .
وحياتي .. مع امي : خياطات ، استقبالات ، افلام مصرية غرامية ،
ثرثرة والوان وصباغات ونساء ، وفصائح زواج وطلاق وخيانة .. الشرف ا
كلمة عفنت الشرق ..

رباه ! لقد أعدوا لي كل شيء من قديم ، قبل ان أولد : كيف أفوز ،
كيف افكر ، كيف أمشي وأرتدي ملاسي . حوادتي كلها من صنعهم .
إنها حوادتهم . وما أنا إلا تكرار . شاشة سينما ينعكس عليها الفلم والفلم
الواحد ، عشرات المرات . لأملك شيئاً غير ان أنصاع ، وتلك هي التربية
والاخلاق . ان اكون غدراء ، حتى من وجودي ، وزوجة مخلصاً ..
وفية حين زواجي الذي لا بد منه .. لي ولكل فتاة .

وكتبت مرة أخرى : « سئمت اليوم حديثهن . كانت رسالة غرام
تتد اول سراً بين تلميذات الصف . قرأتها كل واحدة ، لكي ترمق صاحبها
اخيراً بمجد شره وإعجاب مكبوت . حتى صفتي من بين هذا الخلق الزجاجي
« سعاد » هي الاخرى تمت ذات الأمنية ، ان تصبح هدفاً للاعجاب من
شاب ينتظر قرب باب المدرسة ، ومن زميلات لها في صف الشهادة الثانوية .
كأنه لا بد من حب لكل اثني . ولكنني انا لازلت أهزأ بكل عادة .
أليس الحب أيضاً عادة .. محرمة؟ أعترف ان احلامي غامضة جدا ، مشوشة
غامثة . بيد أنها تنفجر أحياناً عن خيال رجل . اما انا فاني عزمتم ان اجده
بنفسي .. لا هو .. »

وكتبت قبيل فحص الشهادة بأسابيع قليلة : « وصلتني رسالته الثالثة عن
طريقها المعتاد .. سعاد . كلهن ساعات بريد مخاضات . على ان يظلمن على
بعض ما يجملن . على ان يشاركن المرسل إليه فرصته وغطته وغروره .
وأملأ ان يجعل ال واحدة منهن رسالة اخرى من شاب آخر ، يوماً ما .
كتابه هذا لا يستغرق في حشو من الجمل الغرامية المبروقة من الف ليلة
وليلة ، ومن الاشعار المستوردة من المجلات الرخيصة . كما هي الرسائل التي
بمها الي صبيان كثيرون .

يبدو انه رازن كبير ، ويعرفني اكثر مما ينبغي . لقد آلتني لهجته
المتحدية : « انك حرب كبيرة على صاك وجمالك . زهرة راتمة في تربة
لا تستحقها . ما بالك قاسية ؟ أحسبن أنك اقوى من ان تحي ؟ »

الأسد الحقيقية : ما أعظم التصميم ! ما أقوى أن ينظر الإنسان بكبرياء
لا حد لها ! ما أجل السفور عن الوجه ، والسفور عن الروح !
الغاية المتلاذلة بأنوار تمكسها عليها إرادة من سيحقق الغاية ، هي الحقيقة
الثابتة وحدها في عالم إنساني يور ويزول ، يتحول ويفنى . أن يكون الإنسان
لغاية ، كأن يكون كتاب لغني ، كأن تكون شجرة لموسم ، فذلك ما
يجعل الحياة لا تفتك بعظمة الأمل الذي يبتدعه كائن ، تكاد تنقب الآفاق عيونه .
وهذه هي غايته ، حياتي الجديدة ، أراها بعد اللحظات الباقية ، التي
تتابع بيني وبين أن يبتثق عمري الضحل القديم كله في حادثة صارخة جاسمة ،
أعدتها أنا بوعي وحريري الخاصة . لحظاتي تنفجر الآن خلجات في فؤادي .
اليس كل امرئ ليجمل ساعته الحقيقية ! وإن شغل عنها بالساعة المعدنية ؟
ساعته هذه كتلة من اللحم خاققة بين الضلوع ، ولا يسمها إلا صاحبها وحده ،
تقرع وجوده من صميمه ، من بذرته ، معينة له زمانه الخاص ... وهكذا
اختلفت الأعمار ، وأعمار الحوادث ، ومدد العواطف والصور ، وظلال
المواقف التي تمكسها حياة الواقع المواردة . أليس لكل ساعته الخاصة -
قلبه الخاص - تمد عليه وجوده ، من داخل ؟ فهي في سرعة حيناً . وعلى
بطء حيناً آخر . على السطح مرة ، وفي اللجج السوداء مرة أخرى . ساعة
فيها الحب والمثل ، الفلق والأمل والنشوة . وكأنها تمد لشيء جليل آخر
الأمر ، لوقت فاصل ، لدقة ينكشف فيها تاريخ الموجود بتامه . تقف فيها
الساعة . أو تنطلق لتبتدع زماناً فردياً ، مستقبلاً مجهولاً ..

قد يكون مصيري الذي أنتظره في ساحة الجامعة ، بين الأزهار
والسيارات وجحافل الطلبة ، ليس بالنسبة لعبري ، كما أو من به أنا . ولكنه
تجربة راتمة لي . ليس أربح منها موعداً مع رجل . فاني أحاذي الازمة
وأناوش خطراً غامضاً . وهذا ليست أيامي ، بعد ، تجري كجدول ناعس
لا تحس به حوافيه . إنها الدرورة التي أدنو منها شيئاً فشيئاً . وكلما اقتربت
تسارعت واصطخبت لججاً بعد لجج وأمرجاً وهديراً . لن اسمعها وحدي ،
بل ستفجر بين مئات الناس .

هذه اللحظة سأقف ما لم أقفه قط . سأصرخ وسيدوي صوتي في كهوف
من لحم ودم : فسيرجع إذن صوتي أصواتاً ، وضجتي ضجات وزئيراً .
سأخطب ، أنا الفتاة ، في جمع يجارب بقاءه من يجارب بالحديد والنار .

* * *

فتاة أشبه بالطلمس تحت آلاف من الغلالات الحريرية . تنظر من خلال
الحرير الى الشارع . من خلال البرقع الى البشر . من خلال الحياة الى البطولة .
تتخضب وجنتها بأشعة الشمس ، تحرقها . وكما تقول أمها : تقتم بشرتها .

أهانة أخرى من واحد في مجتمع لا يعرف إلا أن يهين ويخضع ويقتل ...
لا لن أحب ، ولن يكون ذلك بأسلوبهم مطلقاً . «
و كتبت بعدها بلبلة « لقد عرفته . كان لا بد أن أكتشفه . ولم تستطع
سعاد أن تكتم الى الأبد . لكنها أتت أن تبوح لي باسمه . وفضلت أن
أراه مباشرة .

كان أحمد ولا أحد سواه . أحمد الذي وثقت به عائلتي واعتبرته واحداً
منها فهو صديق أخي « مكرم » منذ الطفولة . انه يدخل بيتنا ويخرج
ساعة يشاء . لقد دفعني الى صميم المعركة أخيراً . فها هي ذي رسائله
تجذبني الى قراءتها بلذة سحرة ، ليلة بعد ليلة . وها هو ينتظرني بلهفة فيها
صلف كثير عند مفترق شارعنا . وها هي صديقتي سعاد شاهدة على
تفاصيل هذه القصة المزعجة .

كيف سأقابلة بعد الآن في البيت ، وهو يزورنا كل يوم ، وتكاد تكون
كل عدوات أخي وروحاته يشاركه فيها ؟

كنت ، من قبل ، أتحدث إليه كما أتحدث الى إنسان في البيت . وكان
يراني في كل هيئة . كانت تفاصيل حياتي اليومية معروضة امامه .. مفضوحة .
دون أن أحاول إخفاء شيء ، فانا أكرهها وأكره كل من اشترك معي في
مسرحة البيت المتكررة آلافاً وآلافاً من المرات . وما عنيت يوماً بأن
أحتاط للأمر .

ليس لدي إذن اسرار فهو يعرفني جيداً . وفي البيت الشرقي لا يحتفظ
الإنسان بسرهم طويلاً . هذا الإنسان غزالي دون أن يدع لي أي فرصة .
باللواقحة !

كان بالنسبة لي شيئاً من أشياء الدار ، قطعة من الاثاث . وأما الآن فهو
أشبه بالزبوجة يكشف عني .. حتى ثيابي . «

و كتبت ذات ليلة وهي في سريرها ، كما دتها قبل أن تنام :

« كانت سهرتنا هذا المساء حافلة ضاحكة ، احتدم فيها كل نوع من الغضب والنقاش
والمهاترة . كنا نجلس في جمود امامينا المعتادة . اني يجتته الهائلة يربض فوق
كرسيه المريح الكبير ، تتأهب عيناه خلف نظارتيه اللطيفتين ، وتغملقان
من لحظة الى اخرى في صحف ومجلات وبعض الكتب التقليدية . واخوتي
تسحرهم هيئة اني العابسة وراء كتبهم ووظائفهم . وامي تنقل بصرها
الساذج بيننا وبين ما تنسجه من الصوف ، وبين ساعة الحائط .

كنت ادرك ان امي مضطربة . وهي تماي من الخوف والحنان ما
يجملها ترقب الساعة الكبيرة بقلق . وتصفني لعل الباب يفتح اخيراً عن
الفرد الوحيد المتمرد على مثل هذه السهرات العائلية الخرساء .

وحين قاربت الساعة العاشرة والنصف دخل أخي « مكرم » ولم يأت
وحده . بل تبعه أحمد . ورغم حراجة الموقف ، فقد لمحته ينظر إلي اول ما
ينظر .

تنحني اني وارتحفت امي . وزايلت عيون اخوتي الكتب الى منظر
جديد ، مهما يكن فهو سيدخل شيئاً من الصخب على هذا الصمت الكئيب .
وشعرت ان شي من الشوق الى ما سيصيب نظام سهرة اني من تشويش .
صاح اخيراً :

– هل هي تلك الاجتماعات السرية السياسية ايضاً يا أحمد ؟ لا اعتقد
انك اتيت مع مكرم الليلة لتحميه من تعيبي . شهران وهو يقضي سهراته
خارج البيت . لعن الله الساعة التي دخل فيها هذه الجامعة .. متى كان شأن
مثلكم لا يعرفون بعد معنى الحياة يشتملون في السياسة !

وهنا اختلطت الكلمات بالزجرات والشتم . وهي لوزعت لاصابت عشرات

منها رأس كل شقي من أبناء الجيل .

وارتفع صوت احمد من خلال صخب اني . وظهر انه يتحكم في كل كلمة
يلفظها ، فيسبها الجبة التي يريد ، عالماً بوقع كل حرف في نفس اني قبل ان
يتلفظه . وإذ اوغل قليلاً ، تراءى لي انه لا يهدف فحسب إلى اقناع اني بحق
الشباب في العمل العام ، ولكنه يود لو يجعل حديثه اشبه بالايحاء المحكم ، فيلقي
الي ببيادىء اخافتني ، دون ان يطمع بموافقة اني عليها . فقد كان يحاول
ان يجذب انتباهي وإعجابي ولو عن طريق إخافتي وإثارتي . وكان مما قاله :

– ليست السياسة كما تفهمون هي ما نريد . ليست صفقات تعقد بين
الأكابر لتطبيق الاصوات في سبيل استمرار العنجهية العائليّة والحكمة
العتيقة البالية . ليست الكراسي والمناصب وحكم الاشخاص العريقي النسب
في استعباد الشعب لاطعامهم . ليست السياسة ، سياستنا ، نوعاً من الامتداد
الفاني للسلطنة العثمانية .. ممن حق الخلفاء وحدهم وحاشيتهم اسحاب
الكروش .

فقاطعه اني محدثاً : وما دخلي اني في ذلك ؟ انك تتبني وكأني انا
المسؤول عما تسمونه ، في مناشيركم ، الفتن الحاسمة او تجار السياسة .. كل
ما هنالك اني احاول تربية اني كما يحلو لي .. عليه ان يتبع اخلاق ابيه
ويقتفي سيرته . انا كنت طيلة ثلاثين عاماً موظفاً أميناً لم يأخذ علي رئيسي
مرة اني تأخرت بعد الثامنة صباحاً دقيقة واحدة ، او اهملت معاملة الناس ،
او تمردت على قرار حكومي . وانتم ما بالكم تشتمون كل حكرمة ،
وتدبرون لها المؤامرات مع من تسمونه الشعب ، وتعرضون هذا القطيع
الاسود ضدها .. يجب ان يخضع اني لقانون الدولة .. وهو الذي
سيصبح قريباً موظفاً مثل ابيه .

أحمد : بل يجب ان يكون كل فرد منا متمرداً على نظام فريق يحافظ
على الاوضاع الفاسدة ، لكي نقيم نظاماً آخر ينبع عن حرية كل فرد
داخل فيه ولا يأتيه قسراً من خارج .. اجل نحن ثورة بل فوضى بالنسبة
لانظمتكم . لقد تعلمت ان تنفذوا القانون الذي وجد لي جعل الجريمة مبررة
والحيانة مشروعة والاتجار بالعروبة عملاً سياسياً شريفاً .. لانه ممن عمل
الاشراف وحدهم ..

– وما الذي جاء بالعروبة الى ثرتك انيما العر ؟

– بل ان العروبة وحدها هي مصدر كل نظام حي واخلاق جديدة .
وإذا كانت تمد افسدتها ألسنة الحكام لكثرة ما لا كوها ، في لم يفسد منها الا
كلها . واما حقيقتها فانها حية في صدورنا جميعاً . من العروبة نستوحي
الثورة على الجأمة والعتيق والمدموس والمزيف . من العروبة نستوحي
اخلاق البطولة والنبل والكرامة . من العروبة نستمد اعظم معنى للحرية
التي رادفت كل عمل جليل خارق قام به اجدادنا يوم فتحوا العالم ..

انني : يالك من متشدد بالفاظ لا تفقهها من معنى إلا جرسها اللفظي ..
اتحسب يا هذا اني لست من العرب ؟ ام اننا نحن الآباء لم يبق لنا شيء
من العروبة بعد ان احتكرها اولادنا الشباب حفظهم الله ! اني عربي
واما انت فلا . اذ تنقصك التجربة . وبعدها ستعلم ما العروبة الحققة .
وبعد إذا قلت ان الحرية هي ما نحاولون اليوم ، فلماذا لا تتركوني حراً
في تربية ابنائي ؟ !

وهنا سنحت لآخي مكرم الفرصة لان يتدخل بعد حماس طويل مكبوت :
– ولكنني حر في نوع التربية التي اتلقني ، وتربيتك هذه يا اني ، اسبح لي
وعقوا ، لا تنسج ونوازع الشباب الجديد .

انني : اخرس . ! ليست حريتك إلا تطاولاً على من اتى بك الى

العالم ومن اعتنى بك واطعمك وحماك وعلمك وجعل منك رجلاً ..
والتفت الى امي : هذا الولد ياسيدي لن اطيق وجوده بيننا منذ الآن ..
اجمي له اشياءه وليرحل عنا ..

وانخرط اخوتي صفاراً وكباراً في النجيب . وبكيت انا ايضاً . نظر
الينا والدنا مهوياً ، واحققت اوداجه وبرزت الطيبة الساذجة فجأة الى
تقاطيع وجهه . وهرع الى غرفته . وقد لحقت به والدتها . وسمته من
خلال نشيجه يقول لها : هؤلاء الشباب يا صفة يمولوني ابكي إعجاباً بهم
وسفقة عليهم .. إن الطاغوت لن يرحمهم !

اذهلنتا دموع ايينا فوجنا وكأنا شعرنا جميعاً بوقر جريمة ساهمنا فيها
كلنا . ولكن اخي البالغ من العمر عشرة اعوام تقدم قليلاً من مكرم
صائحاً : لقد آلمت بابا يا مكرم .. إنه يبكي ويحينا جميعاً .

وإذ ذاك وجدتي اتدخل لاول مرة فأقول له بشدة : « الا تعلم يا هذا
ان ما يغضب اباك عند تأخر ك لبة بعد ليلة هو انه لا يستطيع ان يرك الى
جانبه .. إنك تحرمه من رؤيتك وتقلقه على مصيرك . وانت تدري كم يعول
على السهرة المائتة الكاملة ... الهادئة » . وقت آخر كلمة بشيء من
البرود الاصم . واجابني احمد . ولم يرق لي ان يتكلم عن اخي . وإن
اعجني في النهاية جرابه : « عفواً يا رباب .. اشمر ابي وحدي المسؤول عما
جرى الليلة .. ولكن الا ترين دعي انه كان لا بد من مثل هذا الموقف
الحاسم اخيراً ؟ لعل كلا الطرفين يطامنان من تطرفها : ابوك من عاداته
الصلبة ومفاهيمه ، واخوك من عناده وتحديه المستورد ..

ولم يتم كلامه . فقد رأى في نظراتي ما يمنه عن ذلك . وبعد صمت
قليل اجبته في حماس اخجلني فيما بعد : - بل يجب ان يكون عنيداً الى
اقصى حد واقسى مما تعرف انت .. وكذلك فلنكن جميعاً كذلك !
وهكذا بحت بشيء كثير مما كان ينمو بنفسه ولا اعلمه .

قال احمد : إنك على حق .. وإني معجب بالتطرف الذي يعد لنا
اكبر طاقة وقدرة على متابعة طريقنا .

والتقت عيوننا . وضائقي ذلك . وفهمت انه يسألني شيئاً خاصاً بنا ..
لا بل به وحده .

والآن وانا اكتب اليك يا نفسي اسئلك : ترى هل حقاً سيتلقى جواباً
على رسائلك الثلاث ؟ »

وكانت اجابتي له بعد شهرين شفهاً : إنه ليس لدي ما اقول له . . الآن .
فكف عن إلحافه دون ان ينثني نهائياً عن عزمه .

* * *

ومضى عام ونصف . ورأيت نفسي ذات ليلة اكتب له رسالة هذا نصها .
« احمد . عينك تلاحقني ابدأ . وكلامك لي يبطن قلقاً وعتاباً وحزنأ
لا نجد احدأ تلقي عليه مسؤوليته سواي . . لماذا يا احمد ؟

أتقسرن على ان اكتب إليك ؟ حسناً ، لقد اجتمعنا من جديد في الجامعة
وعلي ان اقول لك شيئاً .

اتذكر ما كتبت لي في رسالتك منذ عامين : جاك زهرة في تربة لاتستحقه .
تلك إهانة مسمومة . واليوم ادرك شيئاً آخر كالصدي البعيد الاعمق لقوك
ذاك في نفسي . اتدري يا صديقي اني منذ وعيت وجودي افضل دائماً
بيني وبين جمالي ؟ إن الفتيات كما تعلم لا يشمرن بالوقت مطلقاً امام المرأة .
يتزلن بجمالهن ، ان كان هن ذلك . اما انا فلا انكر اني هكذا ايضاً .
ولكنني اعتدت حينما انظر نفسي في المرأة الا ارى جمالي إلا وكأنه صورة
دمية .. صورة جميلة لاي امرأة اخرى ما عداي .

او انني انفذ حيناً آخر الى ما وراء القناع الابيض المورد ، واتساءل
عن معنى كل هذا الجمال الذي أحبته انا كما أحبته انت . ومع ذلك ترى
هل علي ان اكون جميلة .. جميلة فحسب . هذا كل دوري على الارض ؟
وامر آخر اريد ان اثير تفكيرك فيه . لقد تبينت لي يا احمد اشياء
كثيرة في سهرتنا الصاخبة . والتي كان من جرائها ان حرم عليك دخول
بيننا مدة اكثر من ستة اشهر . ادركت انك لا تأبه إلا لمدي قدرتك
على التأثير في الآخرين . فانت اوقمت اخي تحت سيطرتك . ولا رب
تود لو تجرد نفسك تلك الساطة علي ، ولكن عن طريق آخر . فلو ان الفكرة
التي ادخلتها في رأسه اصحت فكرته لما احتاج الى دفاعك انت عنه . فلا
ادري ان كانت العقيدة هي التي يؤمن بها ام شخصيتك المحبوكة جيداً .
اتذكر .. لقد جاء بك تلك الليلة لتحميه من سخط ابيه ..

إن الفاصل الدقيق بين شخصيتك وفكرتك يجب ان يكون واضح مما
هو عليه في الواقع . لست ادعو بذلك الى استقلال الفكرة عن معتقها .
وإنما اخشى عليها من عدم التطبيق والامتزاج الصحيح . اخشى على
كلا الطرفين في شخصيتك التي لا تتفعل بأصالة وعمق تلقاء حوارها .

ربما ستعجب لكتابتي هذه . وانا من انا تحت الحرير . لا تنس ان لي
وسائلي ايضاً لان اطل على العالم . صحيح اني انظر الى حوادث عالمكم
من خلال الحرير . ولكن لا يغرب عن بالك انه حرير .. ولا تنس
ايضاً انه لو قدر للكائن خلف الحرير ان يتسلح بوعي فوق الاتثوي
الشرقي لبقيل لاستطاع ان ينفذ الى اسرار اهتماماتكم الكبرى . على الاقل
عن طريق المراقبة غير المتعاطفة . وهذا يبقى الغموض يكتنفه وحده .
والوضوح ينجم على عالمكم ، ما دام الكائن محمياً تحت الحرير . تلك عادة
اخرى افادتي قليلاً ، وسأنتصر عليها هي ايضاً قريباً .

المرأة بنظركم غايتها الحب . ولكنه احياناً قد يكون وسيلتها لبلوغ
كوامن عاطفية وفكرية اعمق من مجرد النشوة . قد تطلع على ما لا
يتوصل اليه بالتفكير الحكمي المجرد . وكل ذلك لان الحب قدرة على
النفوذ لا حد لها .

واول ما يكتشف الحب يا صديقي - وتلك هي تجربتي لتفاهك - قيمة
موضوعه ويجدها للأسف دائماً سخيفة محدودة لا تطاق ، ولا بعد ثالثاً لها .
إذ انها لا تتناسب وهذه اللوعة المشوقة التي تؤزم وجدان الحب . وليس
في ذلك خيبة مطلقة تقضي على الحب ، هذا الانشقاق المثير للعالم . ولكنه
يدفع به ابدأ الى افق اوسع واوسع ، بعد ان تزود منه صاحبه بتلك
الحساسية الوجدانية المرهفة بالمعاني الدقيقة والمواقف الحفية العميقة التي
تنطوي عليها الحياة اليومية . وهكذا تصبح هذه الحساسية مقياس إنسانيته
الحقيقي . إنسانيته .. قدرته على الشعور الى ما لا نهاية .. بالاعمق
والاجمل والاحق .

وانا قد قفزت منك الى ما هو ابعد منك .. اجل واحق !

لم تثرني انت ، بقدر ما اثارتي الرسالة التي تدعيها .. الثورة . هذا
اللفظ الذي يطربك جرسه لا تحقيقه . قد يترأى لك ، كما حدثني مرة ،
ان علاقة عكسية تربط الحب والثورة . بين ان يفجر المرء كل قوته نحو
خارج ، وبين ان يجمعها معقماً إياها في ذاته . بين اللشيت والتركيذ . انا
لا ارى غير ذلك . ان الحب نفسه ثورة . وخاصة في محيطنا . فهو
بالنسبة الى الفرد من امتنا ثورة على ما اعتاده من العواطف والافكار
السطحية المتبدلة التي يلقنها تلقينا ويمارسها إعارة . انه بسده لان يعيش
الانسان حقيقته هو التي يكتشفها خلال هذه التجربة الفريدة ، بدل ان

يمدش نسخة عن الآخريين ومثلهم . وفي ذلك سيكون الماشق وحيداً غطلقاً مع مصيره . لن تفيده نصيحة اي انسان . ولن تكون تجربة ميره دليلاً لتجربته . وهذا احد السبل الناجمة لان يكون الفرد صنع ارادته . هذا ان كان يملك ثمة خصباً اصيلاً، والا فستفقد تجربته طابعها وتسقط في ابتدال مثيلاتها .

واما انت، فقد رتب الامور في عقلك على غير ما تسير عليه في الواقع . خاصة بالنسبة لي : « شابة جميلة لها طموحها الاثوي (المتاد) ، محظور عليها الاختلاط ، وانا الشاب الوحيد الذي سيتصل بها، وستراه باستمرار . فلا بد في النهاية من الحب . . » بعرفك . وهذه هي العبودية بعرفي . لانك لن تعرف حقاً الحب الصحيح . وتجربتك عنه فاشلة مصطنعة من الفها الى ياغها . لقد استمعت اليك تلك الامسية وانت تدافع عن اخي . قل لي انك لم تلق بطاعنك ضد اي ، إلا لانك نفسك لم تكن تستطيع لإنعاع ذاتك ببرهان حقيقي يثبت مزاعمك . تلك حقائق ولا ريب ، ولكنها عندك لم تزل بعد مزاعم . فاجأت إذن الى ما يشبه الشاتم .

انت مغرور يا احمد ، وذلك مرض اغاب شبابنا نصف المثقف . لا يهملك من الثورة إلا ما تفسهلك من مجهول جديد يثير فيك الحلم بالمغامرة . لا المغامرة نفسها . واني اقول لك لبس من دواعي الثورة ان تحب . ولكن من دواعي الحب ان تثور . . تثور على نفسك المزيفة ومجتمعك ، هذه البركة الآسنة من حيوانات عصور ما قبل التاريخ . واذا كان ثمة كائن يتوضح لديه الثورة فهو عند نقض الثورة . . المرأة . واكثر من ذلك المرأة العربية التي تتركز فيها وتلقي عندها جميع تقاليد المجتمع غير الحرا! ولهذا يا صديقي ، فاني صممت ان اثور . . واول ما سأثور عليه هو قاعدة ان اكون جميلة . . محبوبة . . سأشتغل في السياسة . ولن احتاج الى دفاعك إذا ما اصطدمت يوماً بطاري العائلي . »

* * *

ذات صباح دوى صوت حاد ثاقب في اروقة الجامعة . ومالبت الطلاب ان اجتماعوا في الساحة الخارجية . وكان الخبر كالنار يتداوله الشباب : يقال ان فتاة تخطب . . يقال انها ستقود مظاهرة اليوم .

وكان احدهم . . يقف قرب الجدار هيزأ في بسمة، واضح انها ساخرة . ولكن ما هو موضوع سخريته ؟ اهذه التي تتقاذف منها الكلمات كالرصاص الذي سيتفجر قريباً حول السور من مرتقة الديكتاتور المحيطين بسياج الجامعة . . ام هو نفسه ، من يقف لا يدري هل يصدق اذنيه فيلتب حماساً كهؤلاء الفتيان والفتيات ، ام يجمد كقطعة من الجدار المستند اليه . ويملاً ذاته احتقاراً كافرأ بكل ما اتاه من اعمال ثورية . . جليلة ، راحت تبدو له الآن كأنها فارغة من مغزاها الاصيلي الذي تعزى به طويلاً عن كل المشاق التي سببته له ؟ ترى ايكون الجندي في الجبهة ولا يجارب ؟

ايقتل ويهدم ويسجن ويضرب ، دون ان يفعل او يفعل بشيء من هذا في الواقع ؟ وتساءلت اعماقه بوحشية مكشورة . اين الصدق في حياته ؟ ونظر اليها : مخيفة بكلماتها الصخرية . تهتر ، وليس غنجاً ارتعاشها . تهدد بقبضتها ، وليس في زندها اساور ذهب تثير خشخشة بلاء تخمق عيونها في وجوه المظاهرين ، فيرون فيها الكلمات قبل ان تنطق بالكلمات . ويلحون فيها الوقائيع ، مشخصة معانيها، التي ستصير اليها الفاظها . عيون جريئة ليس فيها كسل الحلم . بل بقطة ساطعة تقذف الشرر المحرق . وشمرها يتواثب على جبينها كعاصفة مكبلة .

انه يذكّر مواقف عدة له كان يلقي فيها الخطب النارية . ولكنه لم يكن مرة يرجو في الوجوه التي امامه اكثر من امارات الاعجاب بمانيه وروعتهما .

ويلتهم الازدراء احشائه لاول مرة ، اذ تتكشف له حقيقة نفسه حينما كان يتصدر الهجوم على الشرطة . فقد كان ينظر خلفه ليري كم من العيون ترأف بطولته . اواه . . إذن كاد ان يموت اكثر من مرة في سبيل ماذا؟ حتى انه كان مستعداً للقتل فيما لو رآه الناس والشعب والحزب .

ليس هذا . . بل ان للباطل بمض العادة ، بعض العزاء . فهم يحتاجون الى الاعجاب . وما البطولة إذن ، اذا كان الانسان يعمل وحده ؟ اما هذه . . . هذه الفتاة كالحلم البركانية . اين انوثتها ؟ هي قاسية ! وتدعي اليوم انها تخطو خطوة جبارة في ميدان النضال الاثوي . . العربي .

لإنها تدفمه ، ارادت ام لم ترد، الى الشمور بحقارة لا حد لها امام كبريائها الصادقة .

كل شيء فيها الآن يصرخ . انها تثور للثورة نفسها، للثل الاعلى الحقيقي . لا تكاد تستهدف ثمناً لنضالها الا الاعجاب . فهي تملكه لانها جميلة . ولا للتمجيد والتصفيق . وها هي ذي لاتقف عند جملة لتنتشي بالتصفيق والتهنئات لتمجيد نضال المرأة العربية ، التي تتصاعد من قلوب الشباب . وكأهم فتحووا فتحاً مبيئاً . وقالوا نصراً عظيماً دون النصر على الديكتاتور القزم .

المرأة العربية . . فايتمحرك هذا المخلوق منذ الآن . انه ليس يحقق الانقلاب العربي الا من كانوا اكثر شعوراً بالظلم والمرارة والفراغ . ليس فقط الفقراء والعمال والفلاحون . ان لدى هؤلاء يتجسم الظلم المادي . واما الظلم الاثمي ، ظلم القلوب والوجدانات والحريات ، فلنقتس عنه لدى امرأة تبعث عن الكرامة ، ولدى رجل يجوع للوجود الاكمل .

هذا ما ارادت ان تقوله له دائماً . . وهي تحت الحرير . وابي هو ان يعترف بنضالها . وانه ليحس الآن بأعماقه انه قد ساهم بنوع من الظلم كان آخر ما سدده الى فتاته هذه . . التي تقود مظاهرة اليوم في الجامعة .

* * *

هكذا . . لم يعد يصطخب صوتها والتهنأ فقط . لقد دخله عنصر آخر رائع . . الرصاص .

واندفعت الجموع نحو الاسوار . وبينهم كان احمد يكافح كي يصل الى امام . اعتقد بلمح البصر انه لا بد من توضيح حقيقية هنا اليوم . هذه فرصته . ولم يفت الاوان بعد . وقيل الباب الكبير توفقت المظاهرة . وسمع احدهم ينادي : اختاه . لقد برز مكرم اخيراً في جناح آخر من المظاهرة المندفمة . . وكان هو ايضاً يقود . .

وعند الباب الكبير ، قبله بخطوات ، توقفت المظاهرة . وكان لا بد من طليعة تقذف بنفسها وتفتح البوابة . وتكون اول من يواجه البنادق الرشاشة المصوبة . وفي تلك اللحظة التي كانت فيها رباب تحفز للانطلاق ويهدر بعدها الجمهور ، بلغ احمد الخط الاول .

لقد حملت في بندقيه احد المرتزة القرييين ورمته بنظرة ازدراء نارية واندفعت صائحة : اضرب . . يا حقير !

وبلغت قفل الباب بأسرع مما ادرك فيه الموقف كل من الرجلين ، المرتق واحمد . وطار صواب احمد . . ودفع بجسمه امامه . ومرة اخرى ازددرته عينا رباب .

وتطاير الدم ، وخفتت الاصوات ، واران سكوت ذبيح . وهكذا سقط في ذلك اليوم جرحى كثيرون من الطلاب . . . وال طالبات .

مطاع صفدي

دمشق